4 - السيدة أم الفضل لبابة الهلالية

نسبها

اسمها لبابة، والدها الحارث بن حَزْن، والدتها هند بنت عوف أكرم عجوز في الدنيا أصهاراً، فقد تزوَّج رسول الله ﷺ ابنتها ميمونة، وتزوج العباس عم النبي ﷺ ابنتها أم الفضل، وتزوج حمزة عم رسول الله ﷺ ابنتها سَلْمى، وتزوَّج جعفر بن أبي طالب ابنتها أسماء، فلما استشهد في معركة مؤتة خلفه عليها أبو بكر الصديق، فلما مات خلفه عليها علي بن أبي طالب، فهل كان لحماة مثل هؤلاء الأصهار الأخيار؟!!.

وقد أنجبت لبابة للعباس ستة من الأفذاذ؛ أولهم: الفضل، وبه كانت تُكنى، وعبد الله حبر الأمة وترجمان القرآن، وعبيد الله الفقيه، ومعبد، وقثم، وعبد الرحمن.

إسلامها وآل بيتها

أسلمت أم الفضل في مكة قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وقيل: إنها ثانية النساء إسلاماً بعد أم المؤمنين خديجة ﵂، ولقيت في سبيل إسلامها العَنَتَ، والأذى الشديد، وكانت ﵂ من علية قومها وسيدة نسائهم كما هو حال زوجها العباس في قومه، لكنها بعد إعلان إسلامها هي وابنها عبد الله باتا من المُستضعفين، وقد أخرج البخاري في صحيحه عَنْ عُبَيْدِ اللهِ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: «كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ»[1].

---

(1) رواه: البخاري/ كتاب: تفسير القرآن/ باب: قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ﴾/ برقم: (4221).

وأخرج البخاري أيضاً عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ تَلا: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: 75]، قَالَ: «كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ»(1).

وكان رسول الله ﷺ يُوادُّها ويكرمها، ويتردد إلى بيتها ليزورها، وربما كان يقيل عندها أحياناً، وقد حباها الله شجاعة وقوة فجعلت ذلك في سبيل الدفاع عن رسول الله ﷺ ونصرة دينه والقضاء على واحدٍ من ألدِّ أعداء النبي ﷺ، وأشدهم إيذاء له، وهو عمه أبو لهب زوج أم جميل حمَّالة الحطب، فقد روى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِي حُسَيْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: قَالَ أَبُو رَافِعٍ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: كُنْتُ غُلامًا لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَ الإِسْلامُ قَدْ دَخَلَنَا فَأَسْلَمْتُ، وَأَسْلَمَتْ أُمُّ الْفَضْلِ، وَكَانَ الْعَبَّاسُ قَدْ أَسْلَمَ وَلَكِنَّهُ كَانَ يَهَابُ قَوْمَهُ، وَكَانَ يَكْتُمُ إِسْلامَهُ.

وَكَانَ أَبُو لَهَبٍ - عَدُوُّ اللهِ - قَدْ تَخَلَّفَ عَنْ بَدْرٍ، وَبَعَثَ مَكَانَهُ الْعَاصَ ابْنَ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَكَذَلِكَ كَانُوا يصنَعُون: لَمْ يَتَخَلَّفْ رَجُلٌ إِلا بَعَثَ مَكَانَهُ رَجُلاً، فَلَمَّا جَاءَنَا الْخَبَرُ كَبَتَهُ اللهُ وَأَخْزَاهُ، وَوَجَدْنَا أَنْفُسَنَا قُوَّةً(2) وعزةً.

قال: وكنت رجلاً ضعيفاً، أعمل الأقداح، أنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالسٌ وعندي أم الفضل جالسةٌ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه بشر، حتى جلس، فبينما هو جالسٌ، إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث قد قدم، قال: فقال أبو لهب: هلمَّ إليَّ

(1) رواه: البخاري/ كتاب: تفسير القرآن/ باب: قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ﴾/ برقم: (4222).

(2) إلى هنا رواه: الإمام أحمد/ كتاب: باقي مسند الأنصار/ باب: حديث أبي رافع/ برقم: (22744)، وما تبقَّى من رواية ابن إسحاق في سيرة ابن هشام.

فعندك – لعمري – الخبر، قال: فجلس إليه، والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي، أخبرني كيف كان أمر الناس؟ فقال أبو سفيان: والله، ما هو إلا أن لقينا القوم حتى منحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاؤوا! ويأسروننا كيف شاؤوا! وأيْمُ الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلْقٍ بين الناس والأرض، والله لا يقوم لها شيْءٌ.

قال أبو رافع: فرفعت طُنُبَ الحجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة!

فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة، فثاورته، فاحتملني، وضرب بي الأرض، ثم برك عليَّ يضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلى عمودٍ من عُمُدِ الحجرة، فأخذته فضربته به ضربة فلعت في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب سيده؟ فقام أبو لهب مولياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليالٍ حتى رماه الله بالعدسة، فقتله.

وتركه بنوه بعد وفاته ثلاثة أيام لا يدفنونه حتى أنتن، فجاءهم رجل من قريش وقال لهم: ويحكم يا أبناء أبي لهب! ألا تستحيون أن أباكم قد أنتن في بيته لا تدفنونه؟! فقالوا: إنا نخشى على أنفسنا عدوى هذه العدسة! فقال لهم: انطلقوا فأنا أُعينكم عليه، فوالله ما غسلوه إلا قذفاً بالماء ما يدنون منه، ثم حفروا له حفرة ودفعوه بعودٍ في حفرته، ثم قذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه!!.

فما أبشعها من نهاية! تليق بمن كان يمشي خلف رسول الله ﷺ وهو يدعو الناس إلى الله فيقول لهم أبو لهب من ورائه: لا تصدقوه، لا تصدقوه، قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 85].

أدلة إسلام العباس رضي الله عنه

وبقدر ما كان أبو لهب يُناصِبُ ابن أخيه العداء، ويُظهر له البغضاء، فقد كان العباس عمه الآخر محباً له، حفياً به، مناصراً له في دعوته، وقد

سارع إلى الدخول في الإسلام قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، واتَّفق مع ابن أخيه على كتمان إسلامه حتى يكون له عيناً في مكة، وينقل إليه أخبار قريش وما تحيكه ضده وضد المسلمين من المؤامرات، وثمَّة أدلة عديدة على إسلام العباس رضي الله عنه قبل الهجرة، منها:

1- حضوره مع رسول الله ﷺ العقبة الثانية ليستوثق لابن أخيه من تأييد الأنصار له، ومناصرتهم له حين يهاجر إليهم، وكان اللقاء في العقبة سريّاً، وفي سواد الليل، بعيداً عن رقباء قريش وعيونها، ولو كان العباس مقيماً على الشرك لما دعاه رسول الله ﷺ لمرافقته، وكيف يثق بمشركٍ، والمشركون لا عهد لهم؟.

2 - إرسال العباس إلى رسول الله ﷺ بعد استقراره في المدينة برسالة مع رجل يثق به، يبلغه فيها بما أعدت قريش من عدة وعدد وعتاد للقائه في بدر، حتى يأخذ أُهبته، لقد كان هدف قريش من الخروج إلى بدر استئصال المسلمين، والقضاء على رسولهم الأمين، فكيف يحذره العباس مما يصنع المشركون إذا كان واحداً منهم، ولم يك من المسلمين؟.

3 - أمر النبي ﷺ أصحابه بعدم قتل العباس يوم بدر، وأخبرهم أنه إنما خرج مستكرهاً، ولو أن العباس لم يخرج مع قريش إلى ساحة القتال لتحول شكها فيه إلى يقينٍ، فقد كانت في ريبٍ من أمره.

4 - حديث أبي رافع المتقدم آنفاً، والدال على إسلام العباس سراً، وأم الفضل، وإسلامه في وقت مبكر.

لقد قدَّم العباس رضي الله عنه بكتمان إسلامه للمسلمين ولرسولهم ﷺ خدمة لم يكن قادراً على تقديمها في حال العلن، لأن قريشاً لم تكن لتدعه حر التحرك كيف يشاء، يروح ويغدو، ويحضر مجالسها، ويسمع آراءها وقراراتها، ثم يخبر أعداءها بها بين الحين والحين، فجزى الله العباس عن المسلمين ورسولهم ﷺ كل خير يوم يقوم الناس لرب العالمين، لتجزى كل نفس بما كسبت، بالخير خيراً، وبالشر شراً.

رؤيا مباركة

وذات ليلة رأت أم الفضل فيما يرى النائم رؤيا غريبة، استيقظت على أثرها فزعة مذعورة، لها صلة برسول الله ﷺ، فتردَّدت في إخباره بها، غير أن تردُّدها جعل القلق يستبدُّ بها، ومنعها راحة الفكر والبال، ولما جاوز قلقها حدَّ الاحتمال ذهبت إلى النبي ﷺ وعزمت أن تقص عليه رؤياها، وها هي تحدثنا عن ذلك فيما روى أحمد عَنْ سِمَاكٍ، عَنْ قَابُوسَ بْنِ أَبِي الْمُخَارِقِ، عَنْ أُمِّ الْفَضْلِ قَالَتْ: رَأَيْتُ كَأَنَّ فِي بَيْتِي عُضْوًا مِنْ أَعْضَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: فَجَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «**خَيْرًا، تَلِدُ فَاطِمَةُ غُلامًا، فَتَكْفُلِينَهُ بِلَبَنِ ابْنِكِ قُثَم**» قَالَتْ: فَوَلَدَتْ حَسَنًا، فَأَعْطِيتُهُ، فَأَرْضَعْتُهُ حَتَّى تَحَرَّكَ - أَوْ فَطَمْتُهُ - ثُمَّ جِئْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَجْلَسْتُهُ فِي حِجْرِهِ، فَبَالَ، فَضَرَبْتُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، فَقَالَ: «**ارْفُقِي بِابْنِي، رَحِمَكِ اللهُ - أَوْ أَصْلَحَكِ اللهُ - أَوْجَعْتِ ابْنِي**» قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اخْلَعْ إِزَارَكَ وَالْبَسْ ثَوْبًا غَيْرَهُ، حَتَّى أَغْسِلَهُ قَالَ: «**إِنَّمَا يُغْسَلُ بَوْلُ الْجَارِيَةِ، وَيُنْضَحُ بَوْلُ الْغُلامِ**»[1].

وفي رواية أخرى عَنْ صَالِحٍ أَبِي الْخَلِيلِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ أُمِّ الْفَضْلِ قَالَتْ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: إِنِّي رَأَيْتُ فِي مَنَامِي أَنَّ فِي بَيْتِي - أَوْ حُجْرَتِي - عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِكَ، قَالَ: «**تَلِدُ فَاطِمَةُ، إِنْ شَاءَ اللهُ، غُلامًا فَتَكْفُلِينَهُ**» فَوَلَدَتْ فَاطِمَةُ حَسَنًا، فَدَفَعَتْهُ إِلَيْهَا، فَأَرْضَعَتْهُ بِلَبَنِ قُثَمَ، وَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمًا أَزُورُهُ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَهُ عَلَى صَدْرِهِ، فَبَالَ عَلَى صَدْرِهِ، فَأَصَابَ الْبَوْلُ إِزَارَهُ، فَزَخَتُ بِيَدِي عَلَى كَتِفَيْهِ، فَقَالَ: «**أَوْجَعْتِ**

(1) رواه: أحمد/ كتاب: باقي مسند الأنصار/ باب: حديث أم الفضل وهي أخت ميمونة/ برقم: (25641).

ابْنِي أَصْلَحَكِ اللهُ - أَوْ قَالَ: رَحِمَكِ اللهُ -» فَقُلْتُ: أَعْطِنِي إِزَارَكَ أَغْسِلْهُ فَقَالَ: «إِنَّمَا يُغْسَلُ بَوْلُ الْجَارِيَةِ، وَيُصَبُّ عَلَى بَوْلِ الْغُلامِ»[1].

وسعدت أم الفضل بهذا التعبير لرؤياها، وندمت على إبطائها وتأخرها في إخبار النبي ﷺ بها، وقد روى أبو داود أنها جاءت برضيعها مرة إلى رسول الله ﷺ فكان في ذلك حكم فقهي عام، قال: حَدَّثَنَا مُسَدَّدُ بْنُ مُسَرْهَدٍ، وَالرَّبِيعُ بْنُ نَافِعٍ أَبُو تَوْبَةَ، الْمَعْنَى قَالا: حَدَّثَنَا أَبُو الأَحْوَصِ، عَنْ سِمَاكٍ، عَنْ قَابُوسَ، عَنْ لُبَابَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ، قَالَتْ: كَانَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ ﷺ فِي حِجْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَبَالَ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: الْبَسْ ثَوْبًا وَأَعْطِنِي إِزَارَكَ حَتَّى أَغْسِلَهُ» قَالَ ﷺ: «إِنَّمَا يُغْسَلُ مِنْ بَوْلِ الأُنْثَى، وَيُنْضَحُ مِنْ بَوْلِ الذَّكَرِ»[2].

راوية حديث رسول الله ﷺ

وقالت أم الفضل لرسول الله ﷺ مرة: يا رسول الله، إن الله نعاك لنا، فلو أوصيت بنا من يكون بعدك، إن كان الأمر فينا أو في غيرنا! فقال ﷺ: «إِنَّكُمْ مَقْهُورُونَ مُسْتَضْعَفُونَ بَعْدِي».

وكانت أم الفضل راوية لحديث النبي ﷺ، فقد تلقَّفت من فمه الشريف قرابة ثلاثين حديثاً روتها عنه، وقد روى بعضها عنها ولدها عبد الله بن العباس ﷺ، كما روى عنها أنس بن مالك ﷺ، ومولاها تمام، وبعض الصحابة الكرام ﷺ.

وفاتها

كانت أم الفضل حرزاً للإسلام، ووقفت حياتها للدفاع عن المسلمين ضد من عاداهم من الكفرة والمشركين، وكانت مثلاً للأم الصالحة المؤمنة

(1) رواه: أحمد/ كتاب: باقي مسند الأنصار/ باب: حديث أم الفضل وهي أخت ميمونة/ برقم: (25644).

(2) رواه: أبو داود/ كتاب: الطهارة/ باب: بول الصبي يصيب الثوب/ برقم: (320).

الشجاعة، وقد خلَّفت لنا عدداً من الأفاضل، فكانت بحقٍّ أم الفضل مبنًى ومعنًى، حتى لقيت وجه ربها الكريم في خلافة عثمان بن عفان ﷺ، وصلى عليها زوجها العباس ﷺ، ثم ووريت الثرى.

وقد جاء في طبقات ابن سعد هذه الأبيات لعبد الله بن يزيد الهلالي:

مَا وَلَدَتْ نَجِيْبَةٌ مِنْ فَحْلِ بِجَبَلٍ نَعْلَمُهُ وَسَهْلِ
كَسِتَّةٍ مِنْ بَطْنِ أُمِّ الفَضْلِ أَكْرِمْ بِهَ مِنْ كَهْلَةٍ وَكَهْلِ!
عَمِّ النَّبِيِّ المُصْطَفَى ذِي الفَضْلِ وَخَاتَمِ الرُّسْلِ وَخَيْرِ الرُّسْلِ

رحم الله أم الفضل، ورضي عنها، وجزاها جزاء المتقين الأبرار، في خير دار.